الغنوشي يصطنع له حلفاء

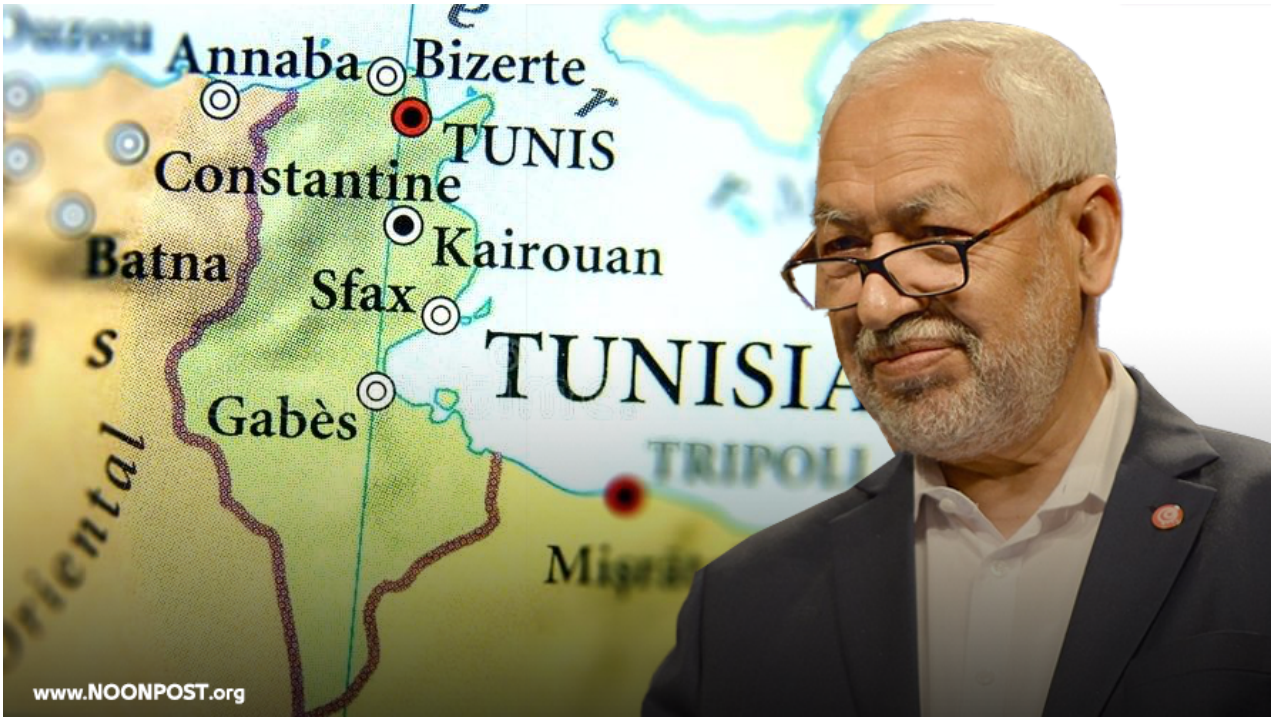

الصورة التي تبدو لي مناسبة لوصف دور راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة في تونس هذه الأيام هي صورة رجل يحمل ماء في وعاء مفتوح (قصعة مثلاً) ويجري به نحو غاية، وقد ألزم نفسه بأن لا يتماوج الماء في القصعة فلا يفيض حتى يدرك به غايته.

إنها صورة دالة في جانب منها على وضع الديمقراطية الهشة في تونس بعد الثورة، وهي أدل على وضع النخب السياسية التي تزعم بناء الديمقراطية بعد أن عارضت الديكتاتورية دهرًا طويلاً زاعمة أن الديكتاتور كان يمنعها من التعبير عن نفسها تنظيميًا، فلما أتيحت لها فرصة التنظم ذهبت كل مذهب إلا بناء نفسها سياسيًا؛ بما جعل الساحة السياسية تتشتت إلا من حزب وحيد قدر على التنظم والعمل، حتى إنه يصطنع الآن له حلفاء فيرفدهم بشريًا وربما يصل به الأمر إلى منحهم مقراته للاجتماع، هذا إذا لم يضطر إلى جمعهم وتنظيمهم ووضع قيادتهم على رؤوسهم كما يفعل معلم قديم بتلاميذ مبتدئين.

يمكنه أن يحكم وحده لكنه يستنكف

في الحقيقة هو لا يستطيع أن يحكم وحده، فقراءة الغنوشي للمرحلة منذ الثورة أن البلد لا يحكم بإرادة حزب واحد؛ لذلك بنى تحالفه الثلاثي بعد 2011 وقد ساعدته نتائج شريكيه الانتخابية حينها، ونجح في المرور من مرحلة كتابة الدستور بأخف الأضرار على البلد (رغم الاغتيالات) وعلى حزبه، وظل تحليله يقود حزبه فدخل في توافق مع حزب النداء على ضوء نتائج 2014.

يجب أن نتذكر هنا أن الغنوشي من سمح وربما حرّض على تأسيس حزب النداء رغم أنه كان يعرف مكوناته المعادية له منذ التأسيس، بشيء من المراجعة يمكن القول إنه كان يستشرف هذه المرحلة التي سيحتاج فيها حليفًا دائمًا، فهل كان على هذه الدرجة الكبيرة من الذكاء الاستشرافي أم أن الوقائع سارت على هواه؟ النتيجة واحدة.

لم ينشأ من خارج النداء مكون سياسي آخر يمكن الاعتماد عليه كشريك ذي وزن يحمل مهمة قيادة البلد وحده أو مع النهضة، هنا معضلة النخبة ومعضلة الغنوشي.

مرارة تجربة الغنوشي زمن الترويكا علمته أن لا يعيد الكرة وأن لا يستفرد بالحكم ولو كان يملك قدرة بشرية وفكرية

يعرف الغنوشي أن فوزه في انتخابات 2019 سيحمله مهمة قيادة البلد وحل أزماته المتراكمة وهي أزمات تزداد تعقيدًا كل يوم، ربما يملك الآن في حزبه الكفاءات القادرة على ذلك، لكن الأمر لا يتعلق بكفاءات الحزب أو بفهمهم لدواليب الحكم وابتكارهم للحلول، بل يتعلق بالنخبة التونسية المهتمة بالشأن العام، يعتقد الغنوشي ولا نخاله إلا مستشرفًا بواقعية أن ردة فعل النخبة والإدارة العميقة في أثناء حكم الترويكا (2012 – 2014) ستتكرر.

التحالف ضد الحزب إذا صار في الحكم، هذه نقطة اللقاء الوحيدة بين كل مكونات المشهد الحزبي، مكونات حزبية متفرقة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار عاجزة عن التحالف والتوافق على حدود دنيا والخروج بكتلة سياسية ذات أهداف مرحلية أو دائمة، لكن عندما يتعلق الأمر برفض كل ما يقوم به حزب النهضة فإنهم يظهرون كمكون واحد وله مشروع منع النهضة من الحكم.

مرارة تجربة الغنوشي زمن الترويكا علمته أن لا يعيد الكرة وأن لا يستفرد بالحكم ولو كان يملك قدرة بشرية وفكرية عليه، ولذلك يقول الغنوشي لأنصاره الآن انقذوا شريكنا من الانهيار، وقد راج في كواليس كثيرة أن كثيرًا من قوائم حزب النداء في البلديات تمت بتوجيه ونصيحة من مكاتب حزب النهضة في مواقع كثيرة، بل تسرب من مواقع كثيرة أن الأسماء التي لا يمكن أن تنجح في الانتخاب بحكم قانون أكبر البقايا أي ذيول القائمات الندائية هي مكونات نهضوية دست في القائمات لكي تستكمل الشكل القانوني فلا تسقط بخطأ شكلي.

حالة تحالف مثل التي حصلت منذ يومين بجوارنا الإيطالي بين تيار النجوم الخمسة غير الأيديولوجي مع رابطة الشمال اليمينية المتطرفة والعنصرية لا يمكن أن تحدث في تونس

النخبة تتحول إلى مشكل سياسي عويص

سآخذ أمثلة من النخبة السياسة النشيطة دون الخوض في قسم آخر يراقب الوضع وينتظر دون مشاركة، يعتبر حزب التيار الديمقراطي حزبًا فتيًا وقد شارك في الاستحقاق البلدي وحقق اختراقًا جعله يحتل المرتبة الثالثة قبل الجبهة الشعبية اليسارية، لكن انتصاره الانتخابي لم يدفعه إلى الاشتراك في العمل البلدي بل أوحى إليه بالتطهر من كل تحالف مع الحزبين الملوثين بأدران الفشل (النداء والنهضة)، إنه الموقف الأسهل ولكنه أيضًا الموقف التقليدي الدال فعلاً على سلوك النخبة السياسية.

التنصل باسم النقاء الثوري السياسي واختيار موقع الربوة الطاهرة وهي خلفية استقالة محمد عبو سنة 2012 من حكومة حمادي الجبالي بما يجعل الغنوشي وهو المعني قبل غيره لا يعول على شريك ناشئ أو يعرض عليه تحالفًا.

إن حالة تحالف مثل التي حصلت منذ يومين بجوارنا الإيطالي بين تيار النجوم الخمسة غير الأيديولوجي مع رابطة الشمال اليمينية المتطرفة والعنصرية لا يمكن أن تحدث في تونس لسبب بسيط أن كل مكونات النخبة السياسية تمارس التطهر السياسي وتكون رصيدها البشري من باب واحد هو نقد من في الحكم دون الجرأة على المشاركة فيه أو تقويته من الداخل، أي دون تحمل مسؤولية إدارة بلد يعيش صعوبات انتقال سياسي واقتصادي.

وفي نقاشات كثيرة طيلة مرحلة التوافق (نهضة نداء) يقر كثيرون أن التوافق قد سمح لتونس بالاستمرار في بناء العملية السياسية بهدوء وضمن سقفًا عاليًا من الحريات وإن لم يتقدم اقتصاديًا بل تراجع بالبلد، يقر كثيرون بذلك لكنهم يهربون إلى إبراز الفشل في إدارة الشأن الاقتصادي، لأن كل إقرار بوجود مكسب سياسي من التوافق يعني أن توافقات أخرى تصير ممكنة وأنه يمكن بالخصوص العمل مع حزب

النهضة، وهذا معناه التوقف عن كسب الأنصار من الهجوم على التوافق (الذي كان ينتهي دومًا بإفراد النهضة دون النداء بالنقد والإدانة).

التقدميون لا يقبلون الرجعيين، ولذلك فإن نقابة اليسار لن تخرج من موقع تخريب كل احتمالات حكم النهضة وتلك سيرتها منذ القصبة 2011

هنا لم تغير النخبة تكتيكاتها بل سجنت نفسها في احتمال وحيد، إذا أردت أن تكون فكن أولاً ضد النهضة ثم انظر، في هذه الطريق فشلت تجربة تأسيس حزب الحراك وحشر أنصار المرزوقي رئيسهم في زاوية التطهر من النهضة الخائنة للثورة.

في هذا الطريق جمع التيار أنصاره ويتبرأ الآن من العمل مع النهضة كأنها حالة جذام على أمل الوصول طاهرًا لانتخابات 2019، وهذا هو الداء العضال الذي ولد به حزب البناء الخارج من رحم النهضة وأعلن موقفًا على يسارها لكنه انتهى يتعفف من السلام عليها، ولهذا يبذل الغنوشي جهدًا إضافيًا لإعادة ترميم حزب النداء، فليس له شريك يعتمد عليه.

التيارات الأيديولوجية والنهضة.. القطيعة الأبدية

أعني هنا خاصة بالتيار القومي بكل أطيافه وهي لا تأتي تحت الحصر وتيار اليسار الراديكالي (الجبهة الشعبية وخاصة مكونها الأشد عداء للنهضة حزب الوطنيين الديمقراطيين "الوطد").

وسأقدم مثالاً حديثًا على ذلك في مدينة دوز (جنوب) فازت حركة الشعب (قومية ناصرية) بـ6 مقاعد وحزب النهضة بـ6 مقاعد وتوزعت بقية المقاعد دون أغلبية لأحد وفي الوقت الذي كان الناس ينتظرون بدء التفاوض بين الحزبين على تعيين المجلس وانتخاب رئيسه رجت حركة الشعب بخطاب جهادي ضد حزب النهضة (هم العدو فاحذرهم) ثم عادت إلى تاريخ الإخوان المسلمين صنيعة المخابرات؛ فكأن المرء عاد إلى عام 64 يستمع إلى بروباغندا إذاعة الشرق الأوسط الناصرية.

وهي ليست حالة منفردة وإنما خط سياسي ثابت، يجعل كل لقاء بين القوميين والإسلاميين مستحيلاً، ومثل ذلك احتمالات اللقاء مع الجبهة الشعبية، هذه طريق مقطوعة والغنوشي يقن من ذلك ولذلك لا يرسل أي إشارات في اتجاهها لأنه يعرف أن الرد جاهز، التقدميون لا يقبلون الرجعيين، ولذلك فإن نقابة اليسار لن تخرج من موقع تخريب كل احتمالات حكم النهضة وتلك سيرتها منذ القصبة 2011.

الغنوشي ليس مسؤولاً عن تشت النخبة السياسية فهو لم يمنعها من التنظم

ماذا بقي للغنوشي ليحكم؟

ليس لديه حلول إلا أن يصنع له من خصومه حلفاء، وهم في حالة تشتتهم وفزعهم من الانهيار، ليس للنداء قيادة يعتمد عليها خاصة تحت قيادة ابن الرئيس الذي لم يثبت أي كفاءة أو مسؤولية في تنظيم الحزب، فنظام المصالح الذي تآلف حوله النداء سنة 2012 فقد صلاحيته إذ يمكن تدبر مصالح خارج النداء بما في ذلك مع النهضة، والشق الاستئصالي الذي كان نقطة قوة النداء حتى 2014 تشتت بعد أن رفض الباجي استعادة حرب بن علي على النهضة، ورغم ذلك يبذل الغنوشي جهدًا لترميمه ويعطي مساحة فعل للرئيس على حسابه لكي يبقى جثة الحزب تتنفس.

الغنوشي ليس مسؤولاً عن تشت النخبة السياسية فهو لم يمنعها من التنظم، وهو ليس من يحدد لها أفكارها، وهو لا يستطيع أن يمنحها ما منح شريكيه في الترويكا فتلك تجربة استنفدت، وهي لا تريد ولكنها لا تصنع نفسها بما يعادل قوته أو يفوقها ليخرجه من موقع الفاعل الرئيسي.

إذًا؟ من رأى في التجارب حزبًا يصنع خصومه؟ إنها حالة النخبة التونسية العاجزة عن التنظم لأنها عاجزة عن تطوير أطروحاتها الفكرية في زمن التحولات الكبرى، فالتمركز الأيديولوجي الصريح والمموه بشأن رفض

العمل السياسي مع حزب الإسلام السياسي في تونس لا يضعف الحزب بل يضعف الرافضين للعمل معه.

والنتيجة؟ هشاشة التجربة الديمقراطية وهوان البلد على القوى الخارجية التي تراقب الوضع وتعرف نقاط ضعفه وتملي عليه ما تريد، هل على الغنوشي أن يحل حزبه لتصل بقية الحزبيات إلى السلطة؟ تبدو هذه هدية مفرحة في عيد الفطر فهو العيد الذي تهدى فيه اللعب للأطفال.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/23473/